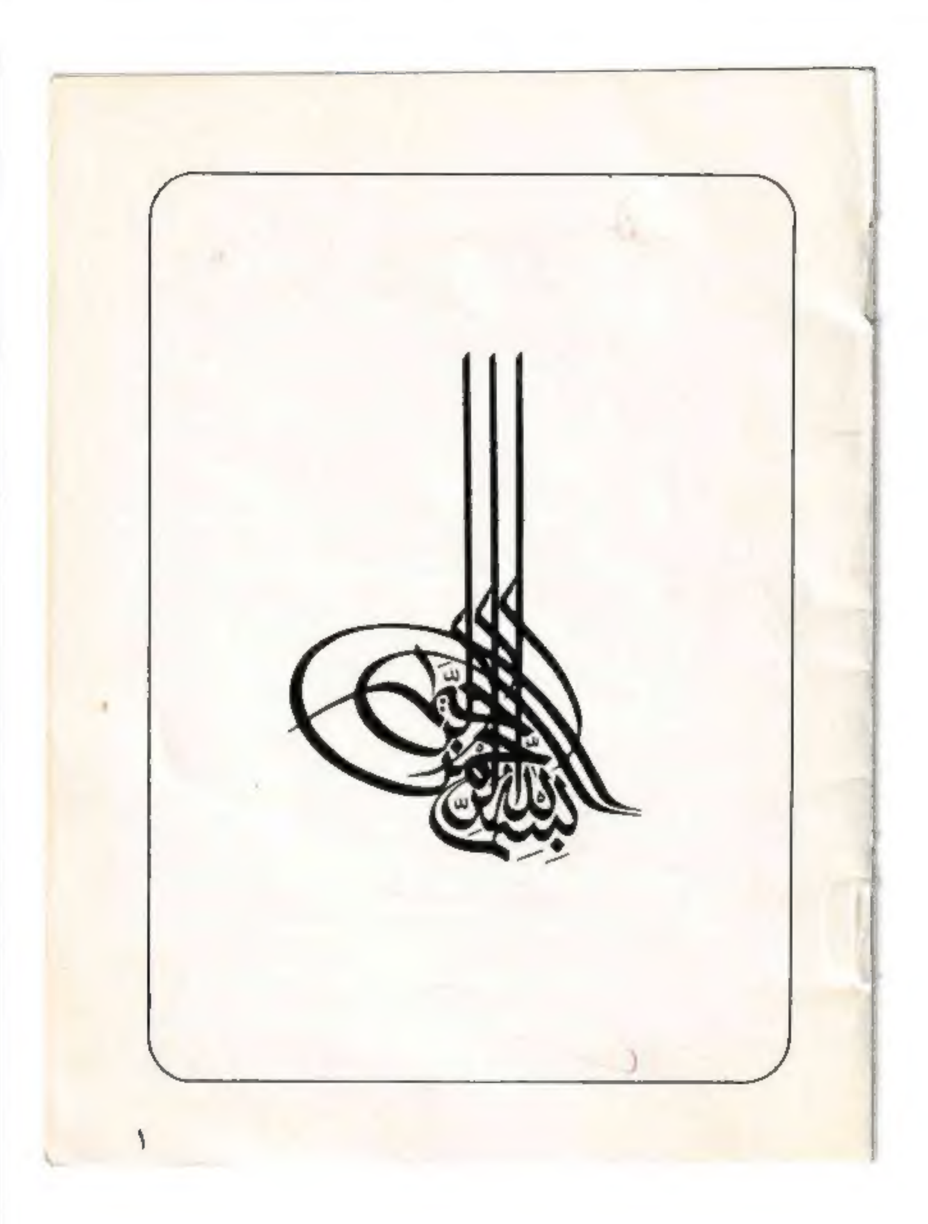
لن يصلح أمر هذه الأمة
إلا بما صلح به أولها

بقلم فضيلة الشيخ
عبد القادر بن محمد العماري


بسم الله الرحمن الرحيم

الإمـام المحدث الفقيه الملقب بسلطان العلماء أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي المتوفى عام ٦٦٠هـ الـذي اشتهر وعرف في التاريخ الإسلامي بمواقفه المجيدة في التصدي لانحرافات الولاة والسلاطين ومقاومة الظلم والباطل والصـدع بكلمـة الحق ولايخاف في الله لومة لائم قال في كتابه « قواعـد الأحكـام في مصالح الأنام » (جاء في الحديث سبعة يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلا ظله : « إمام عادل » فبدأ به لعلو مرتبته ، وأجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات فإن الولاة المقسطين أعظم أجراً وأجل قدراً من غيرهم لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحق ودرء الباطل فإن أحدهم يقول الكلمة الواحدة فيدفع بها مائة ألف مظلمة أو يجلب مائة ألف مصلحـة فما دونها فيـاله من كلام يسير وأجر كبير ، وأما ولاة السوء وقضاة الجور فمن أعظم الناس وزراً وأحطهم درجة عند الله لعموم ما يجرى على أيديهم من جلب المفاسد العظام ودرء المصـالح الجسام وإن أحدهم ليقول الكلمة الواحدة فيأثم بها ألف إثم وأكثـر على حسب عمـوم مفسـدة تلك الكلمة وعلى حسب ما يدفعه بتلك الكلمة من مصالح المسلمين فيا لها من صفقة خاسرة بائرة) الجزء (١) صفحة ١٢٠ .

لاشك أن السعي في مصالح الناس ودفع الأضرار عنهم من أعظم القربات عند الله كما أن السعي في الإضرار بالناس وتعطيل مصالحهم من أعظم المعاصي وأكبر الجرائم في الدنيا والأخرة ، فيستطيع الموظف في أي إدارة من الإدارات العامة التي مهمتها خدمة الناس ورعاية مصالحهم أن يجعل من عمله عبادة ينال بها المثوبة والأجر العظيم من الله إلى جانب الأجر المادي الذي يتقاضاه مقابل عمله ويصبح هذا الأجر حلالاً طيباً إذا هو أخلص نيته في العمل المكلف به ، فمهمة أي مسئول هي أن يدرأ عن الناس المفاسد ويجلب لهم المصالح ، ومقاصد الشريعة تدور حول هذين الأصلين ، درء المفاسد وجلب المصالح ، وطبيعي عندما نقول ذلك ليس معناه أن كل إنسان يدرأ المفاسد عن نفسه فقط ويجلب المصلحة لنفسه فقط بل يعني أن يدرأ المفاسد عن المجتمع ويجلب المصلحة للمجتمع وهو باعتباره فرداً من أفراد المجتمع يناله ما ينال غيره ويحوز الثواب من الله عندما يحقق تلك المصلحة ويدرأ المفسدة ، أما إذا كانت مهمته مصلحته الخاصة فقط وأصبح يدور حول نفسه ولايهمه أمر العامة فتلك هي الخيانة بعينها ، وخان من ؟ لقد خان الله ورسوله والمؤمنين كما جاء في الاحاديث الشريفة ، فهل يقوى على تحمل الإثم العظيم الذي يترتب على خيانة الامانة ؟ والله

يقـول : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (ينبغي أن يعرف الأصلح في كل منصب فإن الولاية لها ركنان ، القوة والأمانة) كما قال تعالى : ﴿ إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾ القصص ٢٦ .

وقال صاحب مصر ليوسف عليه السلام (إنك اليوم لدينا مكين أمين) ٥٤ يوسف ، وقال تعالى في صفة جبريل « إنه لقول رسـول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثَمَّ أمين » ١٩ ـ٢١ التكوير . والقوة في كل ولاية بحسبها ، فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها ، فالحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال من رمي وطعن وضرب وركـوب وكـر وفر ونحو ذلك كما قال تعالى : ﴿ وأعـدوا لهم ما استـطعتم من قوة ومن ربـاط الخيل ﴾ ٦٠ الأنفال . . وقال النبي ﷺ « ارموا واركبوا وأن ترموا أحب إلـيَّ من أن تركبوا » رواه أحمد والترمذي . وقال : « من عُلِمَ الرمي ثم تركه فليس منا » وفي رواية « فهي نعمة جحدها » رواه مسلم .

والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى العلم بالعدل الذي دل عليه الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام ، والأمانة ترجع إلى خشية الله ولا يشتري بآياته ثمناً قليلاً وترك خشية الناس ، وهذه الخصال الثلاث التي أخذها على كل من حكم على الناس في قوله تعالى ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ولاتشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة ، ولهذا قال النبي ﷺ « القضاة ثلاثة ، قاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فرجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار ، ورجل قضى بين الناس على جهل فهو في النار ، ورجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة » رواه أهل السنن .

والقاضي اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما سواء كان خليفة أو سلطاناً أو نائباً أو والياً أو كان منصوبا ليقضي بالشرع أو نائباً له حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط إذا تخايروا ، هكذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ وهو ظاهر .

واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ، ولهذا كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : « اللهم أشكو إليك جلد الفاجر وعجز الثقة » فالواجب في كل ولاية الأصلح بحسبها فإذا تعين رجلان أحدهما أعظم أمانة والآخر أعظم قوة قدم

أنفعهما لتلك الولاية وأقلهما ضرراً فيها ، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أمينا كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو وأحدهما قوي فاجر والاخر صالح ضعيف مع أيهما يُغزى ؟ فقال أما الفاجر القوى فقوته للمسلمين وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين فيغزى مع القوي الفاجر ، وقد قال ﷺ : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » رواه الطبراني في الكبير . وفي رواية « بأقوام لاخلاق لهم » رواه النسائي . فإذا كان فاجراً كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مُسده . . السياسة الشرعية صفحة ٩ ـ ١٠ .

فالضعيف الشخصية لايولي شيئا من أمور المسلمين حتى لو كان متديناً لأنه عن طريق ضعف شخصيته يُستغل ويكون مجرد واجهة .

ولذلك قال الرسول ﷺ لأبي ذر وهو أصدق الناس وأتقاهم (يا أبـا ذر إني أراك ضعيفـاً وإني أحب لك ما أحب لنفسي لاتـأمرن على اثنين ولاتولين مال يتيم) رواه مسلم ، كما أن الرجل الفاجر لايولى أيضا إلا المسئولية التي لاتتأثر بفجوره وفي حالـة واحدة فقط وهي عدم وجود من يسد مسده ، وقد قال

العلماء إن كانت الحاجة في الولاية إلى الأمانة أشد قدم الأمين ، مثل حفظ الأموال ونحوها ، وفي ولاية القضاء قالوا يقدم الأعلم الأورع الأكفأ ، وفي الحديث عن النبي ﷺ « إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات » .

إذا كان سيدنا عمر في زمانه يشكو إلى الله من جلد الفاجر وعجز الثقة فإن الشكوى في هذا العصر تزداد من إناس تجدهم أهل دين وصالحين في أنفسهم يضحك عليهم الآخرون بمختلف الوسائل وبالمظاهر . يتقطع قلب المسلم ويتألم عندما يرى في العالم الإسلامي أن المؤسسات الدينية هي التي تفقد النظام المحكم ويتأذى فيها المراجعون أكثر من غيرها ، لقد قرأت منذ مدة في جريدة عربية تحقيقاً لأحد الصحفيين عما يعانيه المراجعون في مؤسسة دينية التي تعتاد أن تدفع مخصصات وإعانات لبعض الأسر ، أن النساء والشيوخ يفترشون الأرض ويبيتون ليلة أو ليلتين أمام باب الإدارة حتى يحصلوا على الإعانة الزهيدة ، فالروتين فيها بأسوأ أنواعه ، وقلت في نفسي هذه هي شكوى سيدنا عمر من عجز الثقة وجلد الفاجر .

لو أن هذه الإدارة طورت نفسها وحشدت الكفاءات بدلاً من الكسالى والجهلة لكانت حلت مشكلة هذه الجموع التي

تفترش الأرض وتزدحم وتبيت أمام أبوابها .

إن الضمائر الحية هي التي تشعر بآلام الناس وتسعى لحل مشاكلهم والمسلمون هم الذين يجب أن يكونوا في المقدمة في هذه المجالات لأن إسلامنا هو الدين الذي دعا إلى الإهتمام بمصالح الأمة والذي قال على لسان نبيه « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » رواه أبو داود . وقال « من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة » متفق عليه . وإذا نحن أولينا مصالح المسلمين إهتماماً كاهتمامنا بمصالحنا نكون قد فرجنا العديد من الكربات التي يختنق بها المسلمون فليس تفريج الكربة مجرد أن تعطى سائلاً دريهمات في يده كما يفهم ذلك بعض المسلمين وإنما أن تحل مشاكلهم وترفع عن كاهلهم العناء والظلم بقدر ما تستطيع وبحسب ما تتحمل من مسئولية ، من العار أن نتصف نحن المسلمين بالتسيب والفوضى وعدم الإنضباط ويتصف غيرنا بالنظام والإنضباط والإلتزام بقيم العدالة ، أليس نحن الأحق بذلك ؟ أليس ديننا هو الذي جاء بكل ما يحقق الإصلاح في هذا الكون وجاء بكل ما يفيد الانسان في دنياه وأخراه ومنع التعدي والتطاول على الناس ومجاوزة الحد وأقام العدل وحفظ الحقوق وأنصف المظلوم من الظالم ؟

وقال في كتابه ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ولاتبخسوا الناس

أشياءهم ولاتعثوا في الأرض مفسدين ﴾ الشعراء ١٨٢ ـ ١٨٣
قال الإمام ابن القيم : إن الله سبحانه وتعالى أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض .

وقال : إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ورحمة كلها ، وأي مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل ، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله وهي نوره الذي أبصر به المبصرون وهداه الذي اهتدى به المهتدون وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل وطريقه المستقيم الذي من استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل فهي قرة العيون وحياة القلوب ولذة الأرواح فهي بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة ، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها ، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوى العالم ، وهي العصمة للناس وقوام العالم ، فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة . .

اعلام الموقعين الجزء الثاني صفحة ٣ .
فالتواصل بين الحاكم والمحكوم والرحمة من الراعي للرعية وإقامة العدل فيهم هو الذي يقوي أواصر المحبة ويمنع الفتن ويثبت الحكم والإستقرار فيستطيع الحاكم أن يجمع بين خيري الدنيا والأخرة ، قال الرسول ﷺ « إن المقسطين عند الله على منابر من نور ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » رواه مسلم .

كما قال أيضاً « خيار أئمتكم الذين تحبوهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنوهم ويلعنوكم ، قالوا يارسول الله أفلا ننابذهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة » رواه مسلم .

فعلاً جاء الولاة الذين تكرههم الشعوب وتلعنهم بسبب تصرفاتهم وانحرافاتهم ولكنهم مع ذلك يحتفظون ببعض الأخلاق وببعض الرحمة للشعوب ويؤدون الشعائر الدينية وإن كانوا أحياناً يتركون الصلوات إذا خلوا بأنفسهم ، كما قال تعالى ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ﴾ . ولكن بعد ذلك جاءت المصائب والكوارث وجاءت الثورات والانقلابات وجاء الأطفال والمراهقون

يتحكمون في رقاب الناس ، والناس بين أيديهم كما قال الشاعر :

كعصفورة في كف طفل يسومها
حياض الردى والطفل يلهو ويلعب

وهناك حكام لم يتركوا الصلاة فحسب بل كفروا بالله وألحدوا وأنكروا الأديان جميعها وداسوا على كل القيم بأرجلهم ونكلوا بشعوبهم أشد تنكيل وعذبوا الناس وقتلوا منهم من أرادوا بحجة محاربة الرجعية والإمبريالية والإقطاع ، وكل من وقف في وجوههم قالوا له أنت عميل لأمريكا والغرب .

وضاعت مصالح الشعوب وسرقوا مواردها في الوقت الذي يدّعون أنهم كانوا يحافظون على أموال الشعوب ويحاكمون بعض الناس على السرقات الصغيرة .

وسارق الزهر مذموم ومحتقر
وسارق الحقل يدعى الباسل البطل

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي ركضوا إلى أحضان أمريكا والغرب وأصبحوا هم العملاء بأشد مما كان غيرهم ، وفي الواقع إن أهل الباطل كلهم يتكتلون من أجل حماية باطلهم وقد تمثل الآن في دولة إسرائيل ومحاربة الإسلام وقد رأيناهم يستنكرون عملية تل أبيب التي قامت بها حركة حماس باعتبارها ضد الأبرياء

وينسون أن شعباً كاملاً طرد من أرضه وقتل الألاف في سبيل إقامة هذه الدولة المغتصبة ونسوا ما تقوم به إسرائيل في جنوب لبنان ونسوا ما حدث في الحرم الإبراهيمي من قتل المصلين ونسوا ما قامت به إسرائيل من احتلال البلاد العربية بمساعدة الدول الكبرى ، والسلام الذي يروج له الان ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب .

إن ما يصيبنا من مآس كله يرجع إلى أننا تخلينا عن شريعتنا في الوقت الذي يعتز فيه كلينتون بقول راعي الكنيسة : إذا تخليت عن إسرائيل فلن يغفر الله لك . ورحم الله الإمام مالك الذي قال :

لن يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، ورضى الله عن عمر الذي قال (لقد أعزنا الله بالإسلام ومهما طلبنا العزة في غيره أذلنا الله) .



مطابع قطر الوطنية
ت / ٤٤٨٤٥٢/٤/ فاكس ٤٤٩٦٦٠
ص . ب / ٣٥٥ الدوحة - قطر